كلنا بؤساء

في إحدى الأحياء كانت تقيم الفتاة ربيعة، هي فتاة تجاوزت العشرين من عمرها، سمراء البشرة، ذات العينين الواسعتين مع فم عريض مبتسم، معتدلة القامة، ذات شعر أشقر تتباهى به على قريناتها.

نشأت ربيعة كفتاة فقيرة، لكنها فتاة حالمة لم ترضى الاستسلام أبدا للفقر الذي ترعرعت فيه، فتراودها في أحلام اليقظة بأن تكون نفسها تلك الأميرة المتألقة، التي يقام لها ألف حساب. فحتى من يراها وهي في الشارع يظّن أنّها غنيّة لا لشيء سوى لأنّها تبدي عكس ما تعيش.

في أيام الشتاء الهادئة، أطلت الشمس مشرقة معلنة عن يوم دافئ فرغبت ربيعة في الخروج إلى وسط المدينة بعد الظهيرة مع والدتها البسيطة المسماة بالخالة سعدية.

وبعد التنزه وشراء ما راودهما قفلتا راجعتين إلى البيت قبل مغيب الشمس، فطلبت الفتاة من أمها أن يعودا مشيا إلى البيت لتنشط أحلام اليقظة، ففي طريق العودة وبينما كانتا تمشيان في طمأنينة صادفهما لصّ الذي غرّه مظهر ربيعة وتحدث إلى نفسه قائلا: «لا أظنني أجد لقمة خيرا منها «، فبكل هدوء اقترب منهما وراح يهدّدها ويطالبها بترك حقيبة اليد التي كانت تحملها، توسلت إليه الخالة سعدية: « أرجوك دعها فليس لدينا أي شيء، يا ولدي أتركها فالحقيبة فارغة، أرجوك فليس لدينا ما نحمله من نقود، صدقني لا

يهمنا سوى الوثائق التي بداخلها ...»

لكن السارق عنيد وأصر على اختطاف الحقيبة فراح يجر الحقيبة حتى أخدها من يد ربيعة، وفرّ هاربا.

لم تجد الأم سبيلا إلاّ أن تستنجد بالمارة وتصيح: «أمسكوه لقد سرق حقيبة ابنتي، إنّه سارق الحقوا به ...» وبينما هي تنادي كان أحد المارة يصطحب معه كلبه فلحق بالسارق وأرجع للفتاة حقيبتها، لأنّه كان يعرفها فهبّ لنجدتها والغريب في الأمر هو أن السّارق كان من أبناء الحي المجاور لكنّه لم يتعرف على فريسته.

ولما أطلع الشاب الخالة سعدية عن أمر السّارق ومن يكون ذهبت تشكوه لعائلته، فوجدت الأم تحضر الخبز الذي يبيعه زوجها في وسط المدينة، في مكان اعتاد الاجتماع فيه وجماعة من أصحابه الذين أبدعوا في الحيل المشروعة لكسب قوت يومهم.

أشفقت سعدية على وضع المرأة ولم تستطع تضخيم الأمر، فحال جارتها لم يكن أحسن حالا منها، واكتفت بالمعاتبة والإشارة إلى ضرورة مراقبة الولد وعدم تركه يستمر في هذا السلوك الذي قد يجلب المشاكل له ولعائلته.

احمر وجه المرأة من الخجل والعار، وراحت تستسمحها باسم الجوار وأنّها سوف تخبر أباه لينظر في شأن هذا الولد.

لما عاد السارق إلى بيته وجد أباه منتظرا إياه غاضبا، لكن سرعان ما تبدلت حاله، وسكن غضبه ثم خاطبه بلهجة تحمل كثيرا من معاني الشفقة:

تسرق من يا بني ... كما قال أحدهم تحت السماء كثير من البؤساء!..